مراجعة كتاب:

مراجعة كتب ابن قتيبة: قراءة في موقفه الثقافي

A Review of Ibn Qutaybah's Books: An Overview of his Intellect

Ulasan Karya-karya Ibn Qutaybah: Sato Sorotan terhadap Keintelektualannya

نايف محمد العجمي*

مقدمة:

ثَمَّة مقولة شهيرة في الثقافة العربية الإسلامية تناظر بين الجاحظ (٢٥٥هـ) وابن قتيبة (٢٧٦هـ) على المستوى العقدي والثقافي، خلاصتها أن ابن قتيبة كان لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، وتسعى هذه الورقة إلى تحليل الموقف الثقافي لابن قتيبة من مشكلات عصره الذي شهد صراعاً ثقافياً بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافات الوافدة.

وقبل الحديث عن شخصية ابن قتيبة وتحليل موقفه الثقافي، وإلقاء الضوء على منزلتهِ بين علماء عصره، وما ترك من مؤلفاتٍ دالة على قيمته العلمية، لا بدَّ للباحث من التوقُّف قليلاً عند السياق الحضاري والثقافي الذي عاش فيه ابن قتيبة لما لذلك من أثر بالغ في توضيح موقفه الثقافي من عصره وثقافته التي بدأت تخضع للتأثير اليوناني والفارسي على وجه الخصوص، وفي هذا السياق يمكن الاستفادة من المقِّدمة القيّمة التي كتبها ثروت عكاشة لكتاب "المعارف" لابن قتيبة، حيث قدَّم عرضاً جيداً للعصر الذي عاش فيه هذا العالم الموسوعيّ، ابتداءً من بناء مدينة بغداد التي فرغ أبو جعفر المنصور من بنائها سنة ١٤٦هـ وسمّاها "مدينة السلام"، وكيف أنها ظَّلت دار الخلافة للعباسيين حتى أيام المعتصم بالله (ت ٢١٨هـ) الذي أكثر من استقدام الجند الأتراك بسبب عدم اعتماده على القبائل العربية، فضاقت بغداد بهم، فخرج المعتصم إلى "سُرَّ منْ رأى" التي ابتناها وجعلها داراً للخلافة سنة ٢٢١هـ، وظلت داراً للخلافة حتى زمن المعتمد الذي تولى الخلافة من الفترة (٢٥٦هـ-٢٧٩هـ)،

* أستاذ مساعد- وزارة التربية والتعليم، دولة الكويت.

حيث قام قبل وفاته بعام (٢٧٨هـ) بالرجوع إلى بغداد والاستقرار فيها، وجعلها داراً للخلافة كما كانت في سالف الأزمان.[١]

لقد اعتاد المؤرخون على الاشارة إلى عصر الخليفة المأمون (١٦٨هـ-٢١٨هـ) على أنه قمة الازدهار العلمي والثقافي للحضارة العربية الاسلامية عموماً، ولمدينة بغداد على وجه الخصوص، وهذا إن كان صحيحاً من وجهٍ، فإن الحقيقة العلمية التاريخية تشير إلى جهود ضخمة سبقت هذا العصر ابتداءً من أبي جعفر المنصور (١٣٤هـ-١٥٨هـ) الذي أرسى دعائم النهضة العلمية والأدبية في بغداد، وتفرَّغ لنشر العلوم، واستدعى المترجمين، ونقل إلى مدينة السلام خزائن الكتب، واستقدم إليها العلماء، وقرّب إليه علماء الفقه والحديث. ويذكر ابن الأثير أنه كان له بعض المدوّنات العلمية[٢] في إشارة إلى حرصه الشديد على العلم والتعلّم، بل إن الجاحظ يذكر أن أبا جعفر المنصور كان من أصحاب الذوق في الشعر الذي يقوى به على نقد الشعر ومعرفة جيد القول من رديئه، والمنحول والمسروق،[٣] وبعد وفاة المنصور جاء ولده المهدي (١٥٨هـ-١٧١هـ) فأكمل مسيرة والده في العناية بالعلوم والمعارف. ويذكر ثروت عكاشة أنّ معاوية بن يسار وزير المهدي كان أول من وضع له كتاب "الخراج" حيث (ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده)،[٤] ومن المعروف من أخبار المهدي أن المفضّل الضبيّ قد ألف له "المفضليات"[٥] التي تعَدُّ من عيون الشعر العربي، وتحمل دلالة واضحة على مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بتنشيط الحركة العلمية في بغداد وغيرها من المدن.

وبعد وفاة المهدي جاء ولده هارون الرشيد (١٧١هـ-١٩٣هـ) وكان عصره بداية العصور الذهبية للحضارة العربية الاسلامية، فاعتنى عنايةً فائقة بالعلوم والآداب والفنون، ويذكر ابن الجوزي أن هارون الرشيد كان يحب العلم ويؤثره ويستفيد منه، فنال علماً كثيراً، وكانت له فطنة قوية،[٦] ونقل عن أبي سعيد بن مسلم أنه قال: (كان فَهْمُ الرشيد فوق فهم العلماء، وكان يتواضع لأهل العلم والدين)[٧] فانعكس ذلك كلّه على الحياة الثقافية في بغداد، وقد لخص ثروت عكاشة تلك الحالة الثقافية الفريدة التي بلغتها بغداد في عصر الرشيد بقوله: (وتنتقل الأمور إلى الرشيد، ولم يكن دون سابقيه رغبة في العلم وحبّاً للعلماء..... ولقد أفسح للعلماء والحكماء والأدباء، وبذل الكثير من المال لنشر العلوم والفنون، وبلغت بغداد في أيامه مكانة لم تظفر بها مدينة في ذلك العهد، وأصبحت مهْدَ الحضارة، ومركزاً للفنون والآداب وزخرت بالأدباء والعلماء والحكماء، وأُنشئت فيها المراصد والمكتبات والمدارس، وإليه يُعزى تأسيس بيت الحكمة الذي جمع له من الكتب شيئاً كثيراً، وكان مجتمع المتّصلّين بالعلم، والمشتغلين بالفن والراغبين في الأدب).[٨]

وبعد وفاة الرشيد جاء ولده محمد الأمين (١٩٣هـ-١٩٨هـ) فثارت نار الفتن في بغداد، وكان عهده لم يَدُمْ طويلاً، فجاء الخليفة عبدالله المأمون (١٩٨هـ-٢١٨هـ) الذي بلغت الحضارة الإسلامية في عهده ذروة مجدها واكتمالها، وقد لخص المؤرخ صاعد بن أحمد الأندلسي حالة بغداد العلمية الزاهرة التي بلغتها بقوله: (ثم لما أفضت

الخلافة إلى الخليفة السابع منهم عبدالله المأمون بن هارون الرشيد تمّ ما بدأ به جدُّه المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة، فراسل ملوك الروم، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسلهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فاستجادَ لها مهرةَ التراجمة، وكلّفهم إحكام ترجمتها، فترجمت على غاية ما أمكن، ثم حضَّ الناس على قراءتها، ورغّبهم في تعليمها، فثقفت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إحصائه لنتحليها واختصاصه لمتقلديها، فكان يخلو بهم، ويأنس بماظرتهم، ويلتذُّ بمذاكرتهم، فينالون بذلك عنهد المنازل الرفيعة والمراتب السّنية، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر، فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلُّم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة، وسنُّوا لمن بعدهم منهاج الطبّ، ومهّدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الروسية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها).[٩]

يشير هذا الاقتباس الطويل إلى الحالة العلمية الزاهرة التي بلغتها بغداد الدولة العباسية في عصر المأمون، وهو العصر الذي ولد فيه ابن قتيبة كما سنذكره فيما بعد، وفيه دلالة انتشار العلوم العقلية والفلسفية وسيطرتها على ذلك العصر، وهو الأمر الذي سيدفع ابن قتيبة إلى اتخاذ موقف المقاومة على المستوى الثقافي والعلمي على تأليف الكتب التي تشيد بعظمة الثقافة العربية الإسلامية، وضرورة الحفاظ عليها في وجه هذا الغزو الثقافي الكبير الذي شهدته بغداد في عصر المأمون.

شخصية ابن قتيبة

–مولده واسمه ونسبه:

هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة المَرْوَزيّ الدّينوريُّ، وقد اختلف العلماء في مكان ولادته، فذكر ابن النديم وابن الأنباري أنه قد ولد بالكوفة، يقول ابن النديم في التعريف بابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي، مولده لها، وإنّما رسّمي الدينوري لأنه كان قاضي الدينور،[١٠] وقد تابعه على ذلك ابن الأنباري فقال: (وأما أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، فإنه كان كوفياً، ومولده لها، وإنما سمَّي بالدينوري لأنه كان قاضي دينور)،[١١] والدينور كما عرّفها ياقوت الحوي: (مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين، بينهما وبين همذان نيَّفٌ وعشرون فرسخاً، وهي كثيرة الثمار والزرع، ويُنْسَبُ إلى الدينور جماعة كثيرة من أهل الأدب والحديث).[١٢]

وذكر الخطيب البغدادي أن ابن قتيبة بغدادي المولد، وتابعه على ذلك جمال الدين القفطي، يقول الخطيب في ترجمة ابن قتيبة: (وقيل: إن أباه مروزي، وأما هو فمولده بغداد، وأقام بالدينور مدَّةً فشب إليها).[١٣]

وقد ذهب بعض المعاصرين إلى قبول ما قاله ابن النديم وابن الأنباري من كونه كوفيّاً ثم انتقل إلى بغداد، يقول عبد الحميد الجندي: (وأنا أرجّح أنّه ولد بالكوفة وسكن بغداد، لأن من ذكر ذلك أسبقُ من غيرهم مثل ابن الأنباري وابن النديم،[١٤] وهو الذي ذهب د.محمود زغلول سلام حيث قال: "ويبدو أنه ولد بالكوفة، ولم يقم بها كثيراً فانتقل في صباه على الأرجح إلى مدينة السلام، فطالت إقامته بها حتى عُدَّ من أبنائها).[١٥]

عاش ابن قتيبة في بغداد، ونشأ في حلقاتِ العلمِ التي كانت منتشرةً فيها، وقد أخذ عن كثيرٍ من شيوخها المشهورين، فقد كان راغباً في طلبِ العلم و المعرفة، فنسعى إلى السماعِ من العلماء على عادة التعليم في ذاك العصر، وأخذ عن طائفةٍ كبيرةٍ لا يتسعُ المقامُ لذكرهم جميعاً، فنكتفي بذكرِ بعضِ أعلامهم:

١- والده: مسلم بن قتيبة. وقد ذكرَ هو ذلك بصيغة: حَّدثني أبي.[١٦]

٢- أبو عبدالله محمد بن سلام الجُمحي (ت ٢٣١هـ) صاحب طبقات فحول الشعراء.

٣- احمد بن سعيد اللحياني صاحب الإمام الجليل أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٣١هـ) حيث قرأ عليه ابن قتيبة كتاب الأموال لأبي عُبيد.

٤- أبو يعقوب إسحاق بن ابراهيم بن راهَوَيه (ت ٢٣٨هـ) الإمامُ المحدِّث المشهور.

٥- الإمام اللغوي المشهور أبو حاتم محمد بن سهل السجستاني (ت ٢٥٥هـ).

٦- أبو اسحاق ابراهيم بن سفيان الزيادي (ت ٢٤٩هـ) تلميذ سيبويه والأصمعي.

٧- أبو عثمان عمرو بن البحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) صاحب المصنفات الشهيرة وقد أخذ عنه ابن قتيبة بطريقِ الإجازةِ وليس بطريق السماع، وهو ما صَرَّح به ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار" حيث قال: "وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر من كتبه.[١٧]

٨- أبو الفضل العباس بن فرج الرياشي (ت ٢٥٧هـ) تلميذ الأصمعي.

٩- أبو سعيد، أحمد بن خالد الضرير. وقد ذكر الأزهري في مقدمة "تهذيب اللغة" أن ابن قتيبة أخذ عن أبي سعيد الضرير.[١٨]

١٠- أبو الخطّاب، زياد بم يحية الحسّاني البصري (ت ٢٥٤هـ).

وهؤلاء عشرة من كبارِ شيوخِ ابن قتيبة، وقد استقص السيد صقر، والدكتور ثروت عكاشة أسماء شيوخه، فبلغت (٢٦) شيخاً، وفي هذا إشارةٌ إلى إخلاصه في طلب العلم، ورغبته الصادقة في لقاء الشيوخ والأخذ عنهم.

–تلاميذ ابن قتيبة:

وكما تُعرف منزلة العالم بشيوخه، فإنها تُعرف أيضاً بتلاميذه، وقد كان ابن قتيبة على حدِّ عبارة السيد صقر: (كريماً بعلمه، سمى في إقراء كتبه)،[١٩] وقد ظلَّ يُقرئ كتبه حتى وفاته رحمه الله، فتوافد عليه الطلبة، واقتبسوا من علومه، ويكفي أن نشير في هذه المقدمة إلى مجموعة مختارة منهم لتكون دليلاً على منزلته الرفيعة بين علماء عصره فمن تلاميذه المشهورين:

١. ولده أحمد: كان من أهل الحفظ لكتب أبيه، وكان، ويردُّ فيها من حفظه النقطة والشَّكلة، وقد سمع منه طائفة كبيرة من كبار العلماء في مصر والعراق مثل أبي جعفر النحاس وأبي علي القالي وأبي القاسم الآمدي وغيرهم، حيث قرأ عليه القالي كتاب "عيون الأخبار" و"وأدب الكاتب"، وقرأ عليه الآمدي كتب أبيه كلها.

٢. أبو محمد: عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد السكّري، (ت٣٢٣هـ) سمع على ابن قتيبة كتابه "غريب الحديث" و"إصلاح غلط أبي عبيد"، ويصل إلينا من روايته كتاب "المسائل والأجوبة".

٣. قاسم بن أصبغ الأندلسي (ت٣٤٠هـ) الذي رحل إلى بغداد وقرأ على ابن قتيبة كتاب "المعارف" وكتاب "غريب الحديث".

٤. عبد الله بن جعفر بن دستويه (ت٣٥٥هـ) قرأ على ابن قتيبة بعض كتبه ووصل إلينا من طريقه روايته كتاب "الأشربة".

٥. الهيثم بن كليب الشاسي (ت٣٣٥هـ) أخذ عنه الأدب خاصة.

٦. أبو بكر محمد بن خلف المرزبان (ت٣٠٩هـ).

٧. أحمد بن مروان المالكي (ت٢٩٨هـ)، وقد روى عنه كتاب "تأويل مختلف الحديث"، ووصل إلينا عن طريقه.

٨. أبو القاسم: عبيد الله أحمد بن بكر التميمي (ت٣٣٤هـ).

ولا أريد أن أُطيل في ذكر هؤلاء التلاميذ الذين حملوا علم ابن قتيبة رحمه الله ولعلَّ فيما ذكرته دلالة على منزلته العلمية الكبيرة التي جعلت كبار العلماء يتنافسون في سماع كتبه وروايتها.

–مؤلفات ابن قتيبة:

كان ابن قتيبة مثالاً حيّاً لشخصية العالم الموسوعي والأديب المشارك في جميع أشكال الثقافة في عصره. وقد اشتهر عنه أنه قال: (من أراد أن يكون عالماً فليقتصر على علم واحد، ومن أراد أن يكون أديباً فليأخذ من كل علم بطرف)، وإن الناظر في تراث ابن قتيبة يجد أنه قد ترك تراثاً ضخماً متنوعاً من المعارف يعكس مشكلات

عصره الثقافية، ومدى اهتمامه بالدفاع عن الثقافة العربية والإسلامية، وترسيخ مكانتها في مواجهة غيرها من الثقافات التي بدأت تغزو بغداد وتؤثر في طبيعة التفكير العربي الاسلامي مثل الثقافة اليونانية والفارسية والهندية.

ويؤكد عبدالحميد الجندي هذه الحقيقة بقوله: (كان ابن قتيبة من خير النماذج التي تمثل الثقافة ذلك العصر أصدق تمثيل، فقد ألمّ خير إلمام بألوان الثقافة العربية ووقف وقوفاً طيّباً على بعض الثقافات الأجنبية التي ظهرت في محيط الفكر العربي آنذاك).[٢٠] ثم ينقل الجندي عن المستشرق الفرنسي جود ديمومبين الذي ترجم مقدمة كتاب "الشعر والشعراء" إلى اللغة الفرنسية قوله في وصف ابن قتيبة: (يُعتبر ابن قتيبة مثالاً للرجل المثقف الذي يمثّل ثقافة عصره في العصور الوسطى).[٢١]

ويتوقف الجندي عند منهج ابن قتيبة في التأليف باعتباره منهجاً متميزاً عن مناهج علماء عصره، ويقارن بينه وبين الجاحظ والمبَّرد وكلاهما قد عاصره ابن قتيبة، فيرى أن هذا الأخير: (كان ذا عقلية منظمة مصقولة، ولذلك جاءت كتبه وليدة هذا الفكر المنسَّق فقد كان التأليف الأدبي ساذجاً لا يُعّنى فيه إلا بالاختيار، فمسألة من هنا ومسألة من هاك، واستطراد لا ضابط له، ومسائل من وادٍ واحدٍ مفرَّقة في الكتاب، وذلك ملحوظ في كتب "البيان والتبيين"، و"الحيوان" للجاحظ، و"الكامل" للمبّرد، فإذا تناولت كتاب "الحيوان" أحسست أنه يمثّل فوضى التأليف، فهو حين يتكلم عن الكلب والديك، وحين يعرضُ للمفاضلة بينهما، يخرج عن ذلك كله إلى موضوعات لا تخطر على بال، فنراه في أثناء ذلك يسوق في الإمامة والشيعة، وفي الشعر وفي أثره في القبيلة، واعتزاز العرب بالشاعر).[٢٢]

ويضرب الجندي نموذجاً في التصنيف المنظّم من تصانيف ابن قتيبة، ويختار كتاب "عيون الأخبار" فيقول: (ولكن الأمر يختلف في عيون الأخبار مثلاً، ففيه تشعر بأن كتب المختارات الأدبية قد خطت خطوات واسعة نحو الكمال على يد ابن قتيبة، وذلك أنه رتب المختارات وبوّبها، وجمع ما تشابه منها تحت عنوان واحد"، وهو حين يتناول الموضوع يستقصيه استقصاءً شاملاً).[٢٣]

لقد كان ابن قتيبة مكثّراً من التأليف بسبب اهتمامه بمشكلات عصره، كما سنبيّنهُ فيما نستقبل من صفحات هذا البحث ويذكر المؤرخون أن تصانيفه بلغت خمسين كتاباً بين كبير وصغير، ولشهرته العلمية نُسِبت إليه بعض الكتب، وقد تتّبع المحقق السيد صقر وعبد الحميد الجندي وغيرهما أسماء هذه الكتب، ورتبّوها ترتيباً تاريخياً بحسب تاريخ تأليفها، ولا يتّسع المقام لذكرها جميعاً، فيكفي أن أشير إلى أهمّ مصنّفاته على النحو الآتي:

١- تأويل مشكل القرآن وهو من الكتب المبكِّرة التي أُلِّفَت في إطار الموقف العامّ لابن قتيبة في الدفاع عن الثقافة العربية الإسلامية، وبحسب عبارة السيد صقر الذي قام بتحقيق الكتاب فإن كتاب "تأويل مُشكل القرآن" ثمرةٌ طيبةٌ من ثمار الدفاعِ القويم الذي أبلى فيه ابن قتيبة بلاءً حسناً، فقد هاله ما رأى من كثرة

الشكوك التي تُثار حول القرآن، والمطاعِن التي تُسَدَّدُ نحوه، فانتدبَ نفسَه لدرئها، وتبيين عِوجِها، ورد كيدِها إلى نحورِ أصحابها،[٢٤] وقد طُبع الكتاب بتحقيق السيد صقر.

٢- غريب الحديث: وهو كتابٌ أكمل فيه ما فات الإمام الجليل أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) صاحب كتاب "غريب الحديث"، وقد وضَّح ابن قتيبة هذه المسألة في مقدمة كتابِه، وهو مطبوع بتحقيق عبدالجبوري في ثلاثة مجلدات وصدر عام ١٩٧٧م.

٣- الشعر والشعراء: وهو من أشهر كتب النقد القديم المبكرة، وتكمن قيمته في مقدِّمته القيمة التي كتبها في تقويم الشعر، وهي بحسب علي الجندي "من أعظم ما خَلَّفه ابن قتيبة من الآثار الأدبية، لأنه وضع فيها مذهباً جديداً في تقويم الشعر والشعراء ... فقد نبذ التقليد جانباً، وقوَّمَ الشعر من حيث هو شعر، وقد قام بنشر الكتاب أولاً المستشرق الهولندي دي غوية سنة ١٩٠٣م.

٤- أدب الكاتب: وهو أحد الكتب الأربعة التي ذكرها ابن خلدون في قوله: (وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنَّ أصول هذا الفنِّ وأركانه أربعة كتب وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربع فتبعٌ لها وفروعٌ عليها).[٢٥] وقد كتبه ابن قتيبة لإرشاد الكتَّابِ في الدواوين إلى الاستخدامِ الصحيح للّغةِ بعد أن رأى انحدار المستوى اللغوي بين العاملين في الدواوين، وقد طبع الكتاب بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ثمَّ أعاد نشره الدكتور محمد أحمد الدالي. لكن المستشرق ماكس جرونرت كان هو أول من طبع الكتاب في لايدن بهولندا سنة ١٩٠٠م.

٥- عيون الأخبار: وسنتكلم عنه بالتفصيل في جزئية مفردة من هذا البحث.

٦- كتاب "تأويل مُشكِل الحديث. رواه عنه حفيده عبد الواحد بن أحمد، وذكر السيد صقر أنه طبع بمطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦هـ باسم "تأويل مختلف الحديث" ثم قال: (وهو كتاب فريدٌ، تحدَّث فيه عن موقف علماءِ الكلامِ من أهل الحديث، وما تحدَّثوا به عنهم من شتى التهم والمثالب، وأدار الجزء الأكبر من كتابِه على الأحاديث التي ادُّعِيَ فيها التناقض والاختلاف ومخالفة القرآن).[٢٦]

٧- كتاب المعاني الكبير: وهو بحسب عبدالحميد الجندي من أضخمِ كتب ابن قتيبة وأجزلها فائدة، وأغلبُ الظنِّ أنه لم يكن هناك غرضٌ خاصٌّ يتعلق بتأليفه سوى إفادةِ كل ناشد العلم.[٢٧] وهو من أوضح كتب ابن قتيبة دلالة على تبحُّره في اللغة، وقد كان الفضل في نشره للمستشرق النمساوي (س.كرنكو) الذي نسخه بيده وبذل جهداً عظيماً في تصحيحه، ثم نشرته دائرة المعارف العثمانية بتصحيح العلامة عبد الرحمن المعلِّمي اليماني.

٨- كتاب المعارف: وهو كتابٌ قريب من كتب التاريخ بسبب ما اشتمل عليه من أخبار الأنبياء والخلفاء والعلماء والفِرَق وغير ذلك، ألَّفه ابن قتيبة تلبية لحاجةِ عصره، فهو (يستغني عنه من يدخُل مجالِس الملوك ومحافلَ الأشراف، وحِلَقَ أهل العلم). وقد كان المستشرق الألماني وستنفلد أول من نشره سنة ١٨٥٠م، ثم نشره الدكتور ثروت عكاشة في دار المعارف وعلى هذه الطبعة كان اعتمادي في هذا البحث.

٩- كتاب المسائل والأجوبة: وهو كتابٌ يقوم بناؤه على مجموعة أسئلة بلغ عددها (١٩٠) سؤالاً سأله إيّاها تلميذه أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن السكري، وكلّها يتعلّقُ باللغةِ ولكنّها لا تجري على نَسَقٍ خاصّ وتخلو من الترتيب والنظام الذي طبع مصنفات ابن قتيبة، وقد طبع الكتاب بتحقيق مروان العطية وحسن خرّابة، وصدر عن دار ابن كثير عام ١٩٩٠م.

١٠- كتاب الأنواء، ويرجّح عبدالحميد الجندي أن يكون هذا الكتاب هو أسبق كتب ابن قتيبة التي وصلت إلينا، لأنه لم يُشِر فيه إلى واحد من كُتبهِ وقد أشار إليه في "المعاني الكبير"الذي يُعتبرُ من أوائل مؤلفاته[٢٨] وهو مخصّص لإظهار فضلِ العربِ وعلومها وخبرتها الدقيقة بالمواقيت الزمانية، من خلال خبرتها العملية، وليس هو كتاباً في علم الفلك، وهو مندرجٌ في سياق مشروع ابن قتيبة الكبير في الدفاع عن الثقافة العربية، والإشادة بمناقب العرب وعلومها وهو مطبوع.

ابن قتيبة ومنزلته العلمية وثناء العلماء عليه:

كان ابن قتيبة ممثّلاً لأهل السنّة في مقابل المعتزلة، وإذا كان الجاحظ قد فاز بالمنزلةِ العُليا في صفوف المعتزلة، فإن ابن قتيبة قد فازَ بِمِثْلِ هذا وأكثر بين أهل السنة حتى قال ابن تيمية رحمه الله: (كلُّ بيت ليس فيه شيءٌ من تصنيفه لا خَيْرَ فيه)،[٢٩] ويذكر عبدالحميد الجندي أن أهل المغربِ والأندلس كانوا يُقدِّرون كُتبَه تقديرا عظيماً ويعنون بدراستها، ويذكر ابن خير الاشبيلي صاحب "الفهرست" المشهور بعضَ كتب ابن قتيبة التي كانت متداولةً في بلاده، وهي: الأنواء، والمعارف، والشعر والشعراء، والمسائل، وعيون الأخبار، ومعاني الشعر، والميسِر والقِداح وهذه الكتب من خير ما أُلّفَ في الثقافة العربية في بابها.[٣٠]

لقد أثنى كثير من العلماء على ابن قتيبة، ووصفوه بما يليقُ به من العلْم والفضل والثقة والديانة، وربما كان ابن النديم من أوائل الذين أثنَوا عليه حين قال: (كان ابن قتيبة: صادقاً فيما يرويه، عالماً باللغة والنحو، وكتبه مرغوب فيها).[٣١] وقال ابن حزم الأندلسي: (كان ابن قتيبة ثقةً في دينِه وعِلمه).[٣٢]

وقال الحافظ ابن كثير: (ابن قتيبة النحوي اللغوي صاحب المصنّفات الكثيرة، البديعة المفيدة، المحتوية على علوم جَمّة نافعة، أحد العلماء والأدباء، والحفاظ والأذكياء، كان ثقةً نبيلاً).[٣٣] وكذلك أثنى عليه القفطي في "إنباه الرواة" والحافظ الذهبي في "ميزان الاعتدال" وغيرهما من العلماء.

إن هذا الثناء من العلماءِ على ابن قتيبة لم يمنع بعض العلماء من القدح فيه، واتهامِه ببعض التُّهَم الباطلة، ويأتي في مقدمة هؤلاء الإمام أبو عبد الله الحاكم صاحب "المستدرك على الصحيحين" الذي اتّهم ابن قتيبة بأنه كذّاب قد أجمعت الأمة على كذِبه، وهذا الذي قاله الحاكم قد نقله الذهبي في "ميزان الاعتدال" (٢:٧٧) وعقَّبَ عليه بقوله: (هذه مجازفةٌ قبيحة وكلامُ من لم يَخَفِ الله).[٣٤]

وممَّن قدح في منزلة ابن قتيبة وعلمه: الدارقطني، وأبو بكر الأنباري، وقد قام السيد صقر بالدفاعِ عن ابن قتيبة وإثباتِ بُطلان تلك الاتهامات التي لا يتَّسع المقام لذكرها.

لقد عاش ابن قتيبة حياته للعلم، وظَلَّ يُقرئ كتبه ببغداد حتى مات، وتولَّى قضاء الدينور، وهو المنصب الوحيد الذي تولَّاه، ويبدو أنَّ الذي ولَّاه هو الوزير أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وزير المتوكل ثم المعتمد، فقد كانت بينه وبين ابن قتيبة مودّة حملت الأخير على تأليف كتاب "أدب الكاتب" له، وكان سببُ وفاةِ ابن قتيبة فيما يقول تلميذه أبو القاسم إبراهيم الصائغ: (أنه أكل هريسة، فأصابَ حرارة، ثم صاح صيحةً شديدة، ثم أغْميَ عليه إلى وقتِ صلاة الظهر، ثم اضطرب ساعة، ثم هدأ، فما زال يتشهَّدُ إلى وقتِ السحر، ثم مات، وذلك أوَّل ليلةٍ من رجب سنة ستٍ وسبعين ومئتين)،[٣٥] وهكذا انطوت صفحة هذا الإمام الجليل بعد أن ترك وراءه علماً نافعاً ما زالت الأجيال تنتفع به على مرِّ الأيامِ والسنين.

هوامش البحث:

[١] انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **كتاب المعارف**، ط٤، حققه وقدّم له: ثروت عكاشة، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م)، ص٦.

[٢] انظر: ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي **بن** أبي الكرم محمد **بن** محمد **بن** عبد الكريم **بن** عبد الواحد الشيباني، **الكامل في التاريخ**، ط١، تحقيق: عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م)، ج١، ص٧.

[٣] انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٣م)، ج٢، ص١٥٦.

[٤] ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، **كتاب المعارف**، ص٨.

[٥] القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، **إنباه الرواة على أَنباه النحاة**، ط١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٤م)، ج٣، ص٢٠٣.

[٦] انظر: ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ط١، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، ج٨، ص٣٢٢.

[٧] السابق نفسه، ج٨، ص٣٢٣، ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أنّ هارون الرشيد كان يحفظ شعر ذي الرمة. انظر: أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني، **الأغاني**، ط٢، تحقيق: سمير جابر، (بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ)، ج٥، ص٢٤٩.

[٨] ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، **كتاب المعارف**، ص٩.

[٩] الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي القرطبي، **طبقات الأمم**، تحقيق وتعليق: حسين مؤنس، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٨م)، ص٦٤.

[١٠] انظر: ابن النديم، محمد بن إسحاق، **الفهرست**، ط١، تحقيق: إبراهيم رمضان، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٤م)، ص١٠٥.

[١١] ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، ط٣، تحقيق: إبراهيم السامرائي، (عمان: مطبعة المنارة، ١٩٨٥م)، ص١٥٩.

[١٢] ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، **معجم البلدان**، ط٢، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥م)، ج٢، ص٥٤٥.

[١٣] الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، **تاريخ بغداد**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م)، ج١٠، ص١٦٨. وانظر كلام: القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، ط١، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، (القاهرة/بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٦م)، ج٢، ص١٤٣.

[١٤] انظر: الجندي، عبد الحميد، **ابن قتيبة: العالم الناقد الأديب**، ط١، سلسلة أعلام العرب، رقم (٢٢)، (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣م)، ص٩٧.

[١٥] سلام، محمد زغلول، **ابن قتيبة: العالم الناقد الأديب**، سلسلة نوابغ الفكر العربي، رقم (١٩)، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٧م)، ص٢٠.

[١٦] انظر: ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، **عيون الأخبار**، (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت)، ج١، ص١٤٢، وج٢، ص٣٠٧. (حيث روى عن أبيه بعضَ الأخبار).

[١٧] انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **عيون الأخبار**، ج٣، ص١٩٩.

[١٨] انظر: مقدّمة السيد صقر لكتاب: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق: أحمد صقر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٦٦م)، ص٦.

[١٩] السابق نفسه، ص٣٨.

[٢٠] سلام، محمد زغلول، **ابن قتيبة: العالم الناقد الأديب**، ص١٢٢.

[٢١] السابق نفسه، ص١٢٢.

[٢٢] نفسه، ص١٢٣.

[٢٣] نفسه، ص١٢٣.

[٢٤] انظر: ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، **تأويل مشكل القرآن**، ص٧٦.

[٢٥] ابن خلدون، عبد الله بن محمد الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ص٦١٢.

[٢٦] ابن قتيبة، **تأويل مُشكل القرآن**، ص٢٤-٢٥.

[٢٧] انظر: سلام، محمد زغلول، **ابن قتيبة: العالم الناقد الأديب**، ص١٣٢-١٣٣.

[٢٨] انظر: السابق نفسه، ص١٢٩.

[٢٩] نفسه، ص١٢٥.

[٣٠] انظر: نفسه.

[٣١] ابن النديم، **الفهرست**، ص١٥.

[٣٢] مقدّمة السيد صقر لكتاب: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **تأويل مشكل القرآن**، ص٥٢.

[٣٣] ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، ط١، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م)، ج١، ص٥٦.

[٣٤] مقدّمة السيد صقر لكتاب: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **تأويل مشكل القرآن**، ص٥٠.

[٣٥] السابق نفسه، ص٣٩.

References: **المراجع:**

ʾabū al-Faraj al-ʾaṣfahāniy, ʿalī bin al-Ḥusayn bin Muḥammad bin Aḥmad bin al-Haytham al-Marwāniy, *al-ʾaghāniy*, ٢nd edition, ed. Samīr Jābir, (Beirut: Dār al-Fikr, no date).

al-ʾandalusiy, ʾabū al-Qāsim Ṣāʿid bin Aḥmad al-ʾandalusiy al-Qurṭubiy, *Ṭabaqāt al-ʾumam*, ed. Ḥusayn Muʾnis, (Cairo: Dār al-Maʿārif, ١٩٩٨).

al-Jāḥiẓ, ʿamr bin Baḥr, *al-Bayān wa al-Tabyīn*, ed. ʿabd al-Salām Hārūn, (Beirut: Dār al-Fikr al-ʿarabiy, ١٩٨٣).

al-Jundiy, ʿabd al-Ḥamīd, *Ibn Qutaybah: al-ʿālim al-Nāqid al-ʾadīb*, ١st edition, Silsilah Aʿlām al-ʿarab, No.٢٢, (Cairo: Wizarāh al-Thaqāfah wa al-Irshād al-Qawmiy, ١٩٦٣).

al-Khaṭīb al-Baghdādiy, Aḥmad bin ʿalī bin Thābit, *Tārīkh Baghdād*, ed. Muṣṭafā ʿabd al-Qādir ʿaṭā, (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿilmiyyah, ١٩٩٧).

al-Qifṭiy, Jamāl al-Dīn ʾabū al-Ḥasan ʿalī bin Yūsuf, *Inbāh al-Ruwāh ʿalā ʾanbāh al-Nuḥāh*, ١st edition, ed. Muḥammad ʾabū al-Faḍl Ibrāhīm, (Beirut: al-Maktabah al-ʿaṣriyyah, ١٩٩٤).

al-Qifṭiy, Jamāl al-Dīn ʾabū al-Ḥasan ʿalī bin Yūsuf, *Inbāh al-Ruwāh ʿalā ʾanbāh al-Nuḥāh*, ١st edition, ed. Muḥammad ʾabū al-Faḍl Ibrāhīm, (Cairo/Beirut: Dār al-Fikr al-ʿarabiy, ١٩٩٤).

Ibn al-ʾanbāriy, ʾabū al-Barakāt Kamāl al-Dīn ʿabd al-Raḥmān bin Muḥammad, *Nuzhah al-ʾalibbāʾ fī Ṭabaqāt al-ʾudabāʾ*, ٣rd edition, ed. Ibrāhīm al-Sāmirāʾī, (Amman: Maṭbaʿah al-Manārah, ١٩٨٥).

Ibn al-ʿathīr, ʿizz al-Dīn ʾabū al-Ḥasan ʿalī bin ʾabī al-Karam Muḥammad bin Muḥammad bin ʿabd al-Karīm bin ʿabd al-Wāḥid al-Shaybāniy, *al-Kāmil fī al-Tārīkh*, ١st edition, ed. ʿabd al-Salām Tadmuriy, (Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿarabiy, ١٩٩٧).

Ibn al-Jawziy, ʾabū al-Faraj ʿabd al-Rahmān bin ʿalī bin Muḥammad bin ʿalī, *al-Muntazẓam fī Tārīkh al-Mulūk wa al-ʾumam*, ١st edition, ed. Muḥammad ʿabd al-Qādir ʿaṭāʾ Muṣṭafā ʿabd al-Qādir ʿaṭā, (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿilmiyyah, ١٩٩٢).

Ibn al-Nadīm, Muḥammad bin ʾisḥāq, *al-Fihrisit*, ١st edition, ed. Ibrāhīm Ramḍān, (Beirut: Dār al-Maʿrifah, ١٩٩٤).

Ibn Kathīr, ʿimād al-Dīn ʾabū al-Fidāʾ Ismāʿīl bin ʿumar, *al-Bidāyah wa al-Nihāyah*, ١st edition, (Beirut: Dār ʾiḥyāʾ al-Turāth al-ʿarabiy, ١٩٨٨).

Ibn Khaldūn, ʿabd Allāh bin Muḥammad al-Ḥaḍramiy, *Muqaddimah Ibn Khaldūn*, (Beirut: Dār al-Jīl, no date).

Ibn Qutaybah, ʿabd Allāh bin Muslim, *Kitāb al-Maʿārif*, ٤th edition, ed. Tharwat ʿukāshah, (Cairo: Dār al-Maʿārif, ١٩٨١).

Ibn Qutaybah, ʿabd Allāh bin Muslim, *Taʾwīl Mushakkal al-Qurʾān*, ed. Aḥmad Ṣaqar, (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿilmiyyah, ١٩٦٦).

Ibn Qutaybah, ʿabd Allāh bin Muslim, *ʿuyūn al-ʾakhbār*, (Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿarabiy, no date).

Salām, Muḥammad Zaghlūl, *Ibn Qutaybah: al-ʿālim al-Nāqid al-ʾadīb*, Silsilah Nawābiʿ al-Fikr al-ʿarabiy, No.١٩, (Cairo: Dār al-Maʿārif, ١٩٥٧).

Yāqūt al-Ḥamawiy, Shihāb al-Dīn ʾabū ʿabd Allāh Yāqūt bin ʿabd Allāh al-Rūmiy, *Muʿjam al-Buldān*, ٢nd edition, (Beirut: Dār Ṣādir, ١٩٩٥).